صفحات ونفحات

من مذهب ذى النون التصوفى

أستاذ الفلسفة الاسلامية والتصوف بكلية الآداب جامعة القاهرة

ليس بين أيدينا كتب أو رسائل لذى النون أودعها وصف أحواله ، وجعل منها سجلا لأقواله التى يمكن أن يتبين منها مذهبه التصوفى وما كان ينزع إليه فى هذا المذهب من منازع روحية ومعارف ذوقية ، ولكن الأستاذ لويس ماسنيون يذكر لذى النون كتابا يعرف باسم كتاب العجائب ، كما يذكر أنه وقف على اسم هذا الكتاب من الثبت الذى أورده بروكلمان ، ولعل كل ما يمكن أن يقال عنه أنه من آثار ذى النون المكتوبة ، هو طائفة من الأقوال المأثورة والحكم والمواعظ المنظومة والمنثورة وما جرى على لسانه من أمثال ، وما جرى بينه وبين غيره من حوار حول التعاليم الصوفية وما إليها من معرفة ذوقية ومحبة الهية : فقد وقف المحاسبى وعلى بن الموفق ويوسف بن الحسين الرازى بصفة خاصة على طائفة مما تركه ذو النون من تلك الآثار ، وكلهم كان معاصراً له ، كما أن يوسف بن الحسين الرازى المتوفى سنة ٣٠١ هـ كان تلميذاً لذى النون ، اتصل به ، واستمع اليه ، وأخذ عنه . وقد ذكر الترمذى أيضاً احدى مواعظ ذى النون وفسرها على أنها حديث قدسى .

على أن كتب التراجم والطبقات التى عرضت لحياة ذى النون ، قد حفلت بكثير من أقواله وأدعيته التى تصور لنا كثيراً من آرائه فى مختلف المسائل الصوفية فالرسالة للقشيرى ، والطبقات للشعرانى ، والكواكب الدرية للمناوى ، وحلية الأولياء لأبى نعيم الأصبهانى ، وغيرها من كتب التصوف الأخرى التى تجمع بين

التراجم من ناحية وبين مسائل التصوف وموضوعاته ومصطلحاته من ناحية أخرى كالتعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذى ، واللمع للسراج الطوسى ، وكشف المحجوب للهجويرى ، كل أولئك قد عرض لذى النون وعرض علينا بعضاً من أقواله التى تختلف من حيث الكم والتنوع باختلاف المؤلفين . ولعل أبا نعيم الإصبهانى فيما أورد فى حلية الأولياء من آثار ذى النون ، كان أغزر هؤلاء المؤلفين جميعاً مادة ، وأوفرهم تنويعاً ، وأكثرهم ايراداً لأسماء الأشخاص الذين يتألف منهم السند الذى يرد فى نهايته هذا القول أو ذاك الى ذى النون . وليس من شك فى أن ما أثبته أبو نعيم فى هذا الباب يعد ثروة علمية لها خطرها من الناحيتين التاريخية والمذهبية لحياة ذى النون الصوفى المصرى ، ولما يتألف منه مذهبه من عناصر روحية لها قيمتها التصوفية والفلسفية : فالنفس الإنسانية وتحليل خطراتها وشهواتها وأخلاقها ، ووصف أحوالها ومقاماتها ، وتصنيف هذه الأحوال والمقامات وترتيبها ، وبيان ما يستلزمه كل منها ، وتحليل الأخلاق والكشف عما يتصل بها من بعض الأحوال والمقامات من ناحية ، وعن صلتها بالجبر والاختيار من ناحية أخرى ، والسماع وعلاقته بالوجد ، والحج ومناسكه وتأويل هذه المناسك تأويلا يبين ما تنطوى عليه من المعانى الروحية والفلسفية ، والطاعة المغرضة والطاعة المنزهة عن الغرض ، والأخوة فى الله وعلاماتها وعناصرها ، وعلم الباطن وحقيقته ؛ والمعرفة وسبيل الوصول اليها ، ومعرفة الله ووحدانيته وعلاقته بالمخلوقات ، وأن أخص خصائص المعرفة اليقينية لله أنها معرفة له به ، أو أنها معرفة يلقيها الله فى قلب العبد لا معرفة يكتسبها العبد ، والجنة والنار ، والمحبة وتعريفها وتقسيمها ودرجاتها ، والمحبة الإلهية المتبادلة بين الرب والعبد ؛ وعلاقة المحبة بالمعرفة ؛ كل أولئك وكثير غيره رؤوس لمسائل عرضت لها وعبرت عنها صراحة أو ضمنا أقوال ذى النون التى أثبتها أبو نعيم الإصبهانى فى حلية الأولياء ، وكلها يظهرنا من غير شك على أنه وان لم يكن لذى النون كتاب جامع لأشتات آرائه فى مختلف المسائل على الوجه الذى يجعل منها مذهبا مؤتلف العناصر متسق الأجزاء . فإن أبا نعيم قد كفانا مؤونة هذا الكتاب بما قدم بين أيدينا من نصوص ذى النون ؛ وأننا بدراستنا لهذه النصوص وتحقيقها والفحص عما تشتمل عليه من المعانى ،

وماتنزع إليه من المنازع وماتقوم عليه من الأسس النفسية والأخلاقية إلى جانب دعائمها الدينية ، يتهيأ لنا أن نقف منه على مبلغ ماتركه ذو النون فى الحياة الروحية الإسلامية من آثار باقية ، وماكان له فى هذه الحياة الروحية من مذهب ، وماكان يتسم به هذا المذهب من سمات تيوزوفية ظهرت على يدى هذا الصوفى المصرى لأول مرة فى تاريخ الحياة الروحية الإسلامية ، ثم أخذت تدق وتتضح على أيدى من جاء بعده من الصوفية الذين أخذوا عنه وتأثروا به وزادوا عليه ، فكان من تراثهم جميعاً ما يعرف باسم التصوف التيوزوفى .

ولكى يتبين لنا هذا كله ، ويتبين معه أهم العناصر التى يمكن أن يتألف منها لذى النون مذهب ، وأبرز الخصائص التيوزوفية التى يمكن أن يمتاز بها هذا المذهب ، فإنه يحمل بنا أن نقف عند مسائل ثلاث هى فى رأينا جماع مذهبه وملتقى خصائصه ، ونعنى بهذه المسائل الثلاث :

الطريق إلى الله وتحليله إلى عناصره العملية والروحية ؛ والمعرفة ؛ والمحبة .

ولن نقف فى عرضنا لهذه المسائل الثلاث عند حد ما يذكره أبو نعيم من نصوص ذى النون التى تشتمل عليها ، وإنما سنضيف إليه أطرافا مما يورده غيره من المؤلفين الذين كتبوا عن ذى النون . وسنحاول بقدر المستطاع أن نؤلف بين هذا وذاك تأليفا تتضح معه الأفكار ، وتتبين من خلاله المذاهب .

١ — وأول ما يلاحظه المتأمل فى مذهب ذى النون الصوفى الذى يكشف فيه عن معالم الطريق إلى الله هو أن مدار الكلام عنده فى هذه الناحية إنما يقوم على أربعة أشياء : حب الجليل ، وبغض القليل ، واتباع التنزيل ، وخوف التحويل : فهو قد جعل من حب الله والإعراض عن الدنيا والسير على نهج الكتاب والسنة والخوف من أن ينكص الإنسان على عقبيه متابعة لنفسه ومسايرة لنزواتها وشهواتها ، أسساً يقوم عليها مذهبه الصوفى ، ومثلا عليا ينبغى أن يتحقق بها من سلك طريق الله . وليس من شك فى أن أهم هذه الأسس الأربعة وأشملها لغيرها من الأسس الثلاثة الأخرى هو ما عبر عنه ذو النون بحب الجليل ، لا لأنه قدمه على غيره من هذه الأسس فحسب ، بل لأنه كان يرى أن من علامات المحب لله عز وجل متابعة حبيب الله صلى الله عليه وسلم فى أخلاقه وأفعاله وأوامره وسننه .

وهذا يعنى بعبارة أخرى أن الوقوف مع النفس الأمارة والخضوع لنزواتها هو عند ذى النون أكثف أنواع الحجب : لأن طاعة النفس إنما هى عصيان لله ، وهذا العصيان أصل جميع الحجب . وهنا نجد لذى النون حديثاً عن الذنب وقد سئل عن سببه ، فإذا هو يجيب إجابة هى أدنى ما تكون إلى تحليل النفس الإنسانية وما يوجهها من دوافع ، وما تنزع إليه من نوازع تحملها على ارتكاب الشر واقتراف الذنب : فهو يرى أن سبب الذنب النظرة ، وأن من النظرة الخطرة ، وأن فى تدارك الخطرة بالرجوع إلى الله ذهابها ، والا فإنها تمتزج بالوساوس فتتولد منها الشهوة ، وهذا كله باطن لم يظهر بعد على الجوارح ؛ هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن فى تدارك الإنسان للشهوة ما يجعله بمأمن من غوائلها ، والا تولد من الطلب العقل . فواضح هنا أن ذا النون قد رتب ما يقع فى باطن النفس الإنسانية بعضه على بعض ، ورد ما يظهر من أفعالها بعضه الى بعض ، وذلك لكى يظهرنا آخر الأمر على العلة الأولى البعيدة التى تنشأ منها وترجع اليها الشهوات النفسية التى تفسد على الإنسان حياته الروحية الباطنة وحياته العملية الظاهرة كما تفسد عليه صلته بربه اذ يخضع لنفسه ويقع فى ذنبه .

ولا يقف ذو النون فى تحليله للنفس الإنسانية عند هذا الحد الذى يكشف معه عن باطنها ويعلل شهواتها تعليلا نفسياخالصا ، وإنما هو يتجاوزه إلى شىء آخر: ذلك بأنه يتحدث عن أخلاق النفس وما ينبغى أن تتحلى به وما ينبغى أن تتخلى عنه ، حديثاً نتبين من خلاله أن النفس التى هى موضوع لذلك التحليل وشهواتها التى هى مجال لما قدم من تعليل ، هى أيضاً موضوع لعلم الأخلاق . ومنبع للمحمود والمرزول من هذه الأخلاق . وإنه ليتحدث عن أخلاق النفس تارة بالذات ، وتارة أخرى بالعرض ؛ وهو حين يتحدث عنها بالعرض إنما يذكرها على أنها مقومات أو ثمرات أو علامات لهذه الحال أو تلك ، ولهذا المقام أو ذاك من المقامات التى تمر بها نفس السالك فى طريق الله ، والأحوال التى تختلف عليها وقد جعلت غايتها ابتغاء وجه الله .

فمن أمثلة ما يعرض له بالذات من أخلاق النفس ما تحدث به عن العاقل وعن الكريم : فعنده أن العاقل يعترف بذنبه ، ويحس بذنب غيره ، ويجود

بما لديه ، ويزهد فيما عند غيره ، ويكف أذاه ، ويحتمل الأذى عن غيره . وعنده أيضاً أن الكريم يعطى قبل السؤال ، فلا يعقل أن يبخل بعد السؤال ، ويعذر قبل الاعتذار ، فلا يعقل أن يحقد بعد الاعتذار ، ويعف قبل الامتناع ، فلا يعقل أن يطمع فى الازدياد .

على أن أهمية ذى النون فى تاريخ الحياة الروحية الإسلامية لا ترجع إلى هذا الضرب من تحليل أخلاق النفس وبيان آدابها وآفاتها من الناحيتين النفسية والأخلاقية فحسب ، وإنما هى ترجع أولا وقبل كل شىء — إلى هذا التحليل الرائع الذى يقدمه لهذه الآفات وتلك الآداب ، وتتبينه من خلال ما يعرضه من تعريفات الأحوال والمقامات وتصنيفاتها : فقد كان ذو النون — كما لاحظ السلمى وغيره ممن ترجم لذى النون — أول من عرف وصنف وعلم الأحوال ومقامات أهل الولاية . وقد رسم أبو سليمان الدارانى الخطوط الأولى للطريق إلى الله ، ولكن هذا الطريق إلى الله قد انتهى على يد ذى النون إلى غايته ، واستكمل صورته النهائية التى أخذتها عنه ، واعتمدتها من بعده كتب التصوف القديمة . صحيح أن عدة الأحوال والمقامات تختلف من مؤلف إلى مؤلف ، وصحيح أيضاً أن ترتيب هذه المقامات وتلك الأحوال يتباين فى كتاب من كتب الصوفية عما هو عليه فى كتاب آخر ، وصحيح بعد هذا كله أن ما يعده بعض الصوفية والمؤلفين حالا قد يعده البعض الآخر مقاما ، وما يعده هذا الصوفى أو ذاك من المقامات قد يعده غيره من الأحوال ؛ ولكن ليس من شك مع هذا كله فى أن فكرة التدرج من مقام إلى مقام ، وانتقال النفس من حال إلى حال ، وتعريف كل حال وكل مقام وتحليله إلى عناصره النفسية والأخلاقية والإبانة عن حقيقته بالإشارة الى علاماته أو أعلامه أو أعماله ، وكل أولئك قد حفلت به أقوال ذى النون الذى أفاض فيها افاضة لم يكن لغيره من الصوفية المعاصرين له أو الزهاد المتقدمين عليه سابق عهد بها . وليس من شك أيضاً فى أن الذين جاءوا بعد ذى النون من الصوفية المتحققين ، ومن المؤلفين المحققين ، قد استرشدوا بما خلفه الصوفى المصرى فى هذا الباب ، وبما اتبعه فيه من تعريفات وتصنيفات . وفى هذا يقول الأستاذ ماسينيون انه منذ نهاية القرن الثالث للهجرة قد اعتمدت هذه

الطريقة فى التصنيف الصورى لدى التسترى ، ولدى صوفية بغداد ، ثم استكملها وعدلها كل من الواسطى والسراج والقشيرى والغزالى .

ولكى يتضح مبلغ ما أفادته الحياة الروحية الإسلامية من ترتيب ذى النون للأحوال والمقامات ، ومدى ما تنطوى عليه هذه المقامات وتلك الأحوال من المعانى النفسية والأخلاقية التى اتشحت كلها بوشاح صوفى ، يحسن أن نعدد بعض ما أورده ذو النون فى هذه الناحية الهامة من نواحى الحياة الروحية ، بل التى تعد أساسا يقوم عليه صرح كل حياة روحية : فالمحبة واليقين والثقة بالله والشكر والرضى والأنس وحسن الظن بالله والشوق والخوف والإخلاص والكمال والتوكل والصبر والحكمة والزهد والعبادة والتواضع والسخاء وحسن الخلق والرحمة للخلق والاستغناء بالله والحياة والمعرفة والتسليم والإسلام والإيمان والحلم والتقوى والرجاء والحب فى الله والصدق والانقطاع إلى الله والمروءة والتودد والرشد والسعادة كل أولئك وكثير غيره أحوال تختلف على النفس الإنسانية ومقامات تتنقل بينها هذه النفس فى طريقها إلى الله ، وإن ذا النون ليعرض لكل منها معرفا به ومحللا لعناصره ومبينا لحقائقه ودقائقه ومشيراً إلى ماله من أثر فى تصفية النفس وتنقية القلب ، فيتحدث عن هذا المقام أو ذاك ، وعن هذا الحال أو ذاك ، اعتماداً على علاماته أو دلالاته تارة ، أو استناداً إلى أعلامه أو أعماله تارة أخرى ، وكل ذلك على وجه يجعل من الأحوال والمقامات موضوعا لكل من علمى النفس والأخلاق بقدر ماهو موضوع رئيسى للتصوف ودعامة قوية لما ينبغى أن يحياه المتصوف من حياة روحية قوامها الإقبال على الله وغايتها الظفر بالقرب من الله .

ولكى يتبين لنا هذا كله فى وضوح وجلاء ، يحسن أن نقف مع ذى النون عند بعض الأحوال والمقامات ، وذلك على سبيل المثال لا الحصر ، وبالقدر الذى يكفى لإظهار ما تنطوى عليه هذه المقامات وتلك الأحوال من المعانى النفسية والأخلاقية ، وما تنزع إليه أو تتشح به من منازع روحية : فذو النون يحلل المحبة إلى عناصرها تحليلا يتبين من خلال ما يذكره من أعلامها الثلاثة وهى : الرضا فى المكروه ، وحسن الظن فى المجهول ، والتحسين فى الاختيار فى المحذور ؛

ويحلل الشكر بما يذكره من أعمال ثلاثة هى : المقاربة من الإخوان فى النعمة ، واستغنام قضاء الحوائج قبل العطية ، واستقلال الشكر لملاحظة المنة ؛ ويحلل الأنس بالله فيذكر ثلاثة من أعماله وهى : استلذاذ الخلوة والاستيحاش من الصحبة ، واستحلاء الوحدة ، ويعبر عن مقومات الشوق إلى الله بما يذكره من أعلام ثلاثة هى : حب الموت مع الراحة ، وبغض الحياة مع الدعة ، ودوام الحزن مع الكفاية ؛ ويصور الخوف بعلامات ثلاث هى : الورع عن الشبهات بملاحظة الوعيد ، وحفظ اللسان مراقبه للتعظيم ، ودواء الكمد إشفاقا من غضب الحليم ؛ وعلى هذا النحو من التحليل والتعبير والتصوير يمضى ذو النون فى بيان خصائص الأحوال والمقامات بذكر أعلامها أو أعمالها : فمن أعمال اليقين ثلاثة هى : قلة المخالفة للناس فى العشرة ، وترك المدح لهم فى العطية ، والتنزه عن ذمهم فى المنع والرزية ؛ ومن أعلام التوكل ثلاثة هى : نقض العلائق ، وترك التملق فى السلائق ، واستعمال الصدق فى الخلائق ؛ ومن أعلام الزهد ثلاثة هى : صر الأمل ، وحب الفقر ، واستغناء مع صبر ؛ ومن أعمال السخاء ثلاثة هى : البذل للشىء مع الحاجة إليه ، وخوف المكافأة استقلالا للعطية ، والخوف على النفس استغناء لإدخال السرور على الناس ، ومن أعلام الاستغناء بالله ثلاثة هى : التواضع للفقراء المتذللين ، والتعظم على الأغنياء المتكبرين ، وترك المعاشرة لأبناء الدنيا المستكبرين ؛ ومن أعلام الحياء ثلاثة هى: وجدان الأنس بفقدان الوحشة ، والامتلاء من الخلوة بإدمان التفكر ، واستشعار الهيبة بخالص المراقبة ، ومن أعلام الإسلام ثلاثة هى : النظر لأهل الملة ، وكف الأذى عنهم ، والعفو عند المقدرة لمسيئهم ؛ ومن أعلام الحلم ثلاثة هى : قلة الغضب عند مخالفة الرأى ، والاحتمال عن الورى إخباتا للرب ، ونسيان إساءة المسىء عفوا عنه واتساعا عليه ، ومن أعلام التقوى ثلاثة هى :ترك الشهوة المذمومة مع الاستمكان منها ، والوفاء بالصالحات مع نفور النفس عنها ، ورد الأمانات إلى أهلها مع الحاجة إليها ؛ ومن أعلام الحب فى الله ثلاثة هى : بذل الشىء لصفاء الود ، وتعطيل الإرادة لإرادة الله والسخاء بالنفس والمشاركة فى محبوبه ومكروهه بصفة العقد ، ومن أعمال الرشد ثلاثة هى: حسن المحاورة والنصح عند المشاورة ، والبر فى المجاورة ، ومن أعلام السعادة ثلاثة هى الفقه فى الدين ، والتيسير للعمل ، والإخلاص فى السعى .

يتبع

مشيخة الطرق الصوفية

ترحب بالضيف الكبير جلالة ملك الأفغان

بمناسبة تشريف عاهل الأفغان العظيم جلالة محمد ظاهر شاه ملك الأفغان للجمهورية العربية المتحدة . أرسل سماحة السيد محمد محمود علوان شيخ مشايخ الطرق الصوفية إلى جلالته بالبرقية التالية :

« . . . باسمى وباسم مشيخة الطرق الصوفية نرفع لجلالتكم اخلص آيات التهنئة بسلامة الوصول ، وأصدق عواطف الترحيب بزيارتكم لشقيقكم البطل العربى المجاهد الرئيس جمال عبد الناصر . وتشريفكم لأرض عربية اسلامية تقدركم وتعجب بكم ، وتحمل لشعبكم العظيم الحب والأخوة التى تدعمها عقيدة مشتركة ، وأمال متحدة ، ومثل إيمانية عليا يستضىء بها الشعبان فى جهادهما لأمن العالم وسلامه وسعادة الإنسانية ورفاهيتها » .

كما أرسل سماحته بالبرقية التالية إلى سيادة الدكتور صلاح الدين السلجوقى سفير الافغانستان بالقاهرة :

« باسمى وباسم مشيخة الطرق الصوفية نقدم لسيادتكم أصدق آيات التهنئة والترحيب بزيارة عاهل الأفغان العظيم جلالة محمد ظاهر شاه ملك الأفغان ، الأمة الشقيقة ذات الماضى الإسلامى الجليل ، والحاضر المشرق النبيل .

وإذ نهنئكم بمقدم الملك العظيم نتجه إلى الله سبحانه أن يكلأه برعايته وتأييده ، وأن يحقق على يديه الكريمتين آمال الأفغان ، وامجاد الإسلام » .